صور الإعجاز القرآني في ضوء المنحى التداولي للخطاب القرآني

محور المداخلة: الدرس اللغوي الحديث والإعجاز القرآني

د/ عمر عروي
قسم اللغة والحضارة الإسلامية
جامعة الحاج لخضر – باتنة1
هاتف: 70. 76. 86. 61. 05
amar. aroui@univ-batna.dz

ملخص:

تأتي أهمية دراستي الموسومة بـ (**صور الإعجاز القرآني في ضوء المنحى التداولي للخطاب القرآني**) من خلال رصد العملية اللسانية في ضوء الفعل التداولي الذي يتنامى في ظل تداولية الكلام، هذا الفعل الذي يتجلى في ظل دراسة كل جوانب المعنى، وصبر أغوار الدلالة من خلال دراسة اللغة في الاستعمال الحاضر، أي دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية، لا في حدودها المعجمية، أو تراكيبها النحوية المعيارية، فندرس الكلمات، والجمل كما نستعملها، ونفهمها، ونقصد بها في ظروف ومواقع معيّنة، لا كما تصفها اللغة المعيارية، ولا كما تقترحها معاجم اللغة، ولا كما هي في بعض قواعدها العقلية الافتراضية التأويلية المجردة، ونرصد ذلك الفرق بين مقتضيات الفعل الكلامي في علم المعاني العربي والدراسات التداولية الحديثة للوقوف على مدى التعالق والتفاعل بين العلمين من خلال الكتابات اللسانية العربية الحديثة.

الكلمات المفتاحية: الفعل، التداولية، اللسانيات، علم المعاني.

تقديم:

تهدف اللسانيات الحديثة إلى دراسة الظاهرة اللغوية بشكل علمي باستخدام مختلف الأساليب والأدوات المتاحة، والجديدة مثل المنهج التداولي، الذي يعد توجهًا لسانيًا يدرس العلاقة بين النشاط اللغوي والمستخدمين، وطرق استخدام علامات اللغة بنجاح. إنه منهج يعتمد على السياق، ويتناول فاعلية اللغة المرتبطة بالاستخدام من خلال التركيز على الأهداف والمقاصد والأوضاع المحيطة، وبحسب ملابسات الوضع والإنتاج والفهم. تتنظر المنهجية التداولية اللغة على أنها نشاط يمارسه المتحدثون لنقل معنى ضمن سياق معين، ولا تقتصر على وصف الهياكل الظاهرية فحسب، وإنما تدرس اللغة ككيان يتم استخدامه من قبل أفراد محددين في سياق محدد وموجهة إلى مستمعين معينين لأداء غرض محدد. ونظرًا للإيمان بأهمية تطبيق هذه المنهجيات اللسانية على التراث اللغوي دون تعسف أو إفراط في كشف مختلف التطبيقات الموجودة فيه دون الوقوع في حالة إعجاب مفرط أو تقديس له، فقد ظهرت أعمال لسانية عربية كثيرة تسعى إلى الوقوف على حواصل اللسانيات التداولية من مصطلحات ومواضيع ومقتضيات، ومحاولة ربطها بالنتاج العربي في الدرس اللغوي القديم، وخاصة ما يخص الدراسات البلاغية في فرعها علم المعاني الذي يتقاطع كثيرا مع ما جاء في التداولية الحديثة، ومن العلماء الذين حاولوا دراسة الفعل الكلامي بإسهاب نجد الدكتور مسعود صحراوي من خلال كتابه الذي يحمل عنوان "التداولية عند العلماء العرب". ومن خلال هذا الكتاب، يسعى المؤلف إلى استخدام المفاهيم التداولية، وبشكل خاص نظرية الأفعال الكلامية، في قراءة التراث اللساني العربي من خلال مجموعة متنوعة من المجالات المعرفية مثل علم البلاغة وعلم أصول الفقه وعلم النحو وغيرها.

المنحى التداولي:

تعدّ التداولية المقابل العربي للمصطلح الإنجليزي (Pragmatics)، الذي يعود إلى الفيلسوف تشارلز موريس، وفي هذا المقام يجب أن نفرّق بين مصطلحين هما: "براجماتكس" الذي يستخدم في المجال اللساني ويشيع ترجمتها إلى العربية بالتداولية؛ لأنها توفي المطلوب حقّه، بوصف دلالته على معنيي الاستعمال والتفاعل معاً[1]. و"براجماتيزم" الذي يستخدم في مجال الفلسفة. ومن الترجمات الأخرى الذرائعية، والنفعية، والبراغماتية.

أما التداولية اصطلاحاً فيصعب وضع تعريف شامل جامع لها؛ لأنها:

أولاً: لم تكن نشأتها لسانية خالصة، بل كان للفلسفة دور ملحوظ في نشأتها وتطورها، كغيرها من المصطلحات التي نشأت في أحضان الفلسفة، ثمّ ما فتئت أن شاعت في الدراسات اللسانية، مثل السيميائية التي نشأت على يد الفيلسوف الأمريكي بيرس.

وثانياً: لم تكن فرعاً أو مستوى تحليلياً من مستويات التحليل اللساني المعروفة.

وثالثاً: إنها قد لا تنضوي تحت علم من العلوم التي لها علاقة باللغة، على الرغم من تداخلها مع هذه العلوم في بعض الجوانب. فهذه مجمل الأسباب التي يصعب معها وضع تعريف شامل جامع مانع للتداولية[2].

وقد قام غير باحث بعمل إحصائي لتعريفات التداولية، ومفاهيمها، منهم نعمان بوقرة[3]، ويمكن هنا عرض بعض تعريفات التداولية التي وردت:

هي دراسة الأسس التي نستطيع بها أن نعرف لِمَ تكون مجموعة من الجمل شاذة تداولياً أو تعد في الكلام المحال. وعلى الرغم من أن إيضاح الشذوذ في هذه الجمل قد يكون سبيلاً جيداً للوصول إلى نوع من الأسس التي تقوم عليها التداولية، فهو لا يعدّ تعريفاً شاملاً لكل مجالاتها.

هي دراسة كل جوانب المعنى التي تهملها النظريات الدلالية، فإذا اقتصر علم الدلالة على دراسة الأقوال التي تنطبق على شروط الصدق، فإن التداولية تعنى بما وراء ذلك مما لا تنطبق عليه هذه الشروط.

هي دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛ لأنها تشير إلى أن المعنى ليس شيئاً متصلاً بالكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا المتلقي وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم/ المرسل والمتلقي/ المرسل إليه في سياق محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما.

هي العلم الذي يعنى بالشروط اللازمة، لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة، وناجحة، وملائمة للموقف التواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم.

هي دراسة السياقات المختلفة، والوسائل المستخدمة لغوياً للتعبير عن عمل معين.

هي مجال استعمال اللغة في التواصل والمعرفة.

مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرائق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات، والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات. . . إلخ.

فالتداولية تعدّ الضلع الثالث لمثلث يقوم ضلعه الأول على النحو، والثاني على الدلالة؛ إذ ينشغل النحو بعلاقة العلامات بعضها ببعض؛ أي علاقة المفردات، والأدوات، والروابط في العبارة الواحدة، والجملة، والنص.

والاتصال اللغوي يتم بين الأفراد بطريقين:

الأولى: المستوى المنطوق، ويكون بين مرسل ومرسل إليه، فتنشأ عنه مهارتا: التحدث والاستماع.

والثانية: المستوى المكتوب، وهو ما يُعرف بالنظام الكتابي، ويتكون من كاتب وقارئ، فتنشأ عنها مهارتا: القراءة والكتابة.

ويحظى طرفا الخطاب في هذه الثنائيات .السابقة ،. باهتمام بالغ في التحليل اللغوي عند علماء العربية القدماء والمحدثين، منذ سيبويه، وعبد القاهر الجرجاني، والإستراباذي، وغيرهم إلى أعلام الدرس اللساني الحديث، مثل سوسير، وياكبسون، وتشومسكي، وغيرهم وهو ما عُرف أيضاً في الدراسات اللسانية الحديثة بـ"التداولية"، وهي منهج لساني حديث يقوم على استعمال اللغة في الخطاب، والعملية التخاطبية تبدأ بالمرسل، وبقدر ما يكون ناجحاً في إرساله خطابه، ومبيّناً لمقاصده، وذلك باختيار الأدوات اللسانية المناسبة للمقام، يتم فهم هذه المقاصد، ومعرفة معاني خطابه. فالتداولية، إذاً، تختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأفعال الكلامية، وخصائصها خلال إجراء عملية التواصل.

أما كيفية إجراء هذه العملية، فتتمّ كالآتي: يقوم المخ عند إجراء عملية التواصل بإنتاج الأنظمة الصوتية، والدلالية، والتركيبية معاً حتى يصبح لدى الفرد المنشئ / المرسل تيار مستمر من الكلام عند إرادة التحدث، وعندما يستقبل المرسل إليه الرسالة، يقوم المخ بتحليل عناصرها التي يسمعها، ثمّ يستخلص المعنى المقصود من الرسالة، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هناك فروقات فردية تظهر في عملية الفهم، وعندما يختلف السياق؛ ممّا يساعد على تفسير كثير من نتائج المدخلات التي تظهر باختلاف الأفهام بين المتلقين[4].

وفي تراثنا اللغوي والنحوي ما يؤكد اهتمام النحاة بالبعد التداولي للظاهرة اللغوية، وذلك من خلال إشارات كثيرة وردت هنا وهناك مبثوثة في بطون الكتب[5]. كما أظهر كلٌّ من عبد القاهر الجرجاني، ورضي الدين الإستراباذي عناية كبيرة بالارتباط التداولي بين الأسلوب – خبراً كان أم إنشاءً – والمعنى البلاغي، ووظيفته التواصلية، مع حرصهما الكبير، والمتكرر على الاهتمام بالمعاني، والأغراض الإبلاغية المتوخاة من الخطاب. كذلك سلك الأصوليون منهجاً تداولياً في تحليل الظواهر التي لا تعدو أن تكون أغراضاً، وغايات تواصلية يسعى المتكلم إلى تحقيقها.

مرتكزات المنحى التداولي:

الفعل الكلامي:

أولاً: مفهوم الفعل الكلامي:

يشغل مفهوم الفعل الكلامي موقعاً محورياً في اللسانيات التداولية، بوصفه الوحدة الأساسية للتواصل. حيث أنَّ كلَّ اتصال لغوي يقتضي فعلاً كلامياً، فوحدة التواصل اللغوي هي ليست ما كان مفترضاً، بأنَّها الرمز، المفردة أو الجملة، ولا حتى علامة على الرمز أو المفردة أو الجملة، بل هي بالأحرى إنتاج أو إصدار ذلك الرمز أو المفردة أو الجملة في تأدية فعل الكلام.

ومبنى هذا المفهوم أنَّ العبارات اللغوية لا تنقل مضامين مجرَّدة، وأنَّ وظيفة اللغة لا تقتصر على وصف وقائع العالم وصفاً صادقاً أو كاذباً، بل تتعداها إلى الوظيفة الإنجازية، فلو قال رجل مسلم لامرأته: "أنتِ طالق"، أو قال - وقت تبشيره بمولودٍ-: "سميته يحيى"، فإنَّه لا يُنشئ قولاً، بل يُنجز فعلاً. أو قال: أقبَلُ – جواباً لسؤال القاضي "هل تقبل الزواج من فلانة بنت فلان ؟." – فالناطق بهذه العبارة لم يقصد منها إخبار القاضي أو إبلاغه بمعلومات يجهلها، بل هو قد قام بفعل حين نطق بها[6]،«ومن ثَمَّ فاللغة ليست أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب. وإنما اللغة وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية»[7].

مستويات الفعل الكلامي:

قدم "أوستن" بديلاً موضوعياً لتمييز الخبر من الإنشاء، انطلاقاً من القول بأنَّ المُتلفِظ بأية عبارة تنتمي إلى لغة طبيعية يقوم بإنتاج ثلاثة أفعال كلامية هي:

1- **الفعل القولي**: الذي يتشكل من ثلاثة أفعال فرعية، وهي الفعل الصوتي، والفعل التركيبي، والفعل الإبلاغي (الدلالي). فعبارة "إنها ستمطر" – مثلاً - يمكن أن يُفهم معناها، ولكن لا يُدرى أهي إخبار، أم تحذير، أم أمر بحمل مظلة، ومن ثَمَّ، فهو مجرَّد قول شئ.

2- **الفعل الإنجازي:** الذي يقوم به المتكلم أثناء تلفظه، لينجز به معنى قصدياً؛ إذ إنَّه عمل يُنجز بقولٍ ما، مثل: السؤال، والتحذير، والوعد، والأمر، والتأكيد. إذن، هو قيام بفعل ضمن قول شيء.

3- **الفعل التأثيري**: هو الأثر الذي يُحدثه الفعل الإنجازي في المخاطَب، فيتسبب في نشوء آثار في المشاعر والأفكار، كالإقناع، والتضليل، والإرشاد، والتخويف[8].

وتظهر وظيفة التداولية في ستة عناصر رئيسة: المرسل، والمرسل إليه، والرسالة، والقناة، والمرجع، واللغة؛ إذ يرسل المرسل رسالة إلى المرسل إليه، تتضمن موضوعا أو مرجعا معيّنا، وتُكتب هذه الرسالة بلغة يفهمها كل من المرسل والمتلقي. ولكل رسالة قناة حافظة كالظرف بالنسبة للرسالة الورقية، واللغة بالنسبة لمعاني النص الأدبي الإبداعي، ويعني هذا أن اللغة ذات بعد لساني وظيفي، وأنها ستة عناصر، وست وظائف، هي: [9]

المرسل ووظيفته انفعالية تتضمن قيما، ومواقف عاطفية، ومشاعر وأحاسيس يسقطها المتكلم. والمرسل إليه، وهو المخاطب ووظيفته تأثيرية؛ إذ يتم التاثير عليه بغية إقناعه. وتكون العلاقة بين المرسل والمتلقي إيجابية أو سلبية، والرسالة التي تتجسد في وظيفة التواصل المعرفي.

والمرجع ووظيفته مرجعية، والوظيفة المرجعية ترتكز على وظيفة الرسالة بوصفها مرجعا، وواقعا رئيسا تعبر عنه تلك الرسالة. وهذه الوظيفة في الحقيقة موضوعية لا وجود للذاتية فيها، نظرا لوجود الملاحظة الواقعية، والنقل الصحيح، والانعكاس المباشر.

والقناة ووظيفتها حفاظية؛ أي الحفاظ على عملية التواصل والإبلاغ وعدم انقطاعه.

وأخيرا اللغة ووظيفتها تفسيرية، وتقوم على الشرح والتفسير والتأويل، للوصول إلى وصف الرسالة لغويا، بالاستعانة بالمعجم، والقواعد اللغوية والنحوية المشتركة بين المرسل والمرسل إليه.

تدرس التداولية اللغة عند استعمالها في طبقات مقامية مختلفة؛ أي بوصفها كلاماً محدداً صادراً عن مرسل محدد إلى مرسل إليه محدد. وتتأسس الاستدلالات التداولية على "أعراف" اجتماعية، وإن كانت نسبية، فمثلاً قولنا: "لا شكراً" لمن قدّم لنا شيئاً لا نريده، فالسياق المقامي يعدّ مفهوماً تداولياً راسخاً، ينظر عادة إلى المقام على أنه معيار من معايير الحكم على العبارة بالقبول من ناحية لغوية؛ إذ إنّ العبارات غير المكتملة لغوياً قد تكون منسجمة مع المقام، فتصبح صحيحة ومقبولة، والعبارة السابقة "لا شكراً" غير مستقيمة لغوياً؛ لأنّ المعيارية النحوية ترفض هذا التركيب من ناحية المعنى، لكن الواقع الاستعمالي أو السياق المقامي يأخذ به، ومن ثمّ يصبح مفهوماً، ومتداولاً، ومقبولاً.

خطابية القرآن الكريم:

مَن تأمَّلَ الخطابَ القرآنيَّ في أسلوبه وبلاغته، وفي تصريفه وتنويعه، استبانَ له وجهٌ بديعٌ مِن أَوجُه الإعجازِ القرآنيّ، وخَصِيصَةٌ مِن خصائصه الأكيدة، وبيانُ ذلك في شمولية الخطاب القرآني لجميع أصناف المخاطَبين، على اختلاف أجناسهم، وأمْكِنَتِهم، ومِلَلِهم.

وهذا فارقٌ بديع في نوعيَّة الخطاب القرآني البليغ مِن غيره مِن سائر الخطابات، حيث إنَّنا إذا نظرنا إلى الخطاب البشري مهما بلغ مِن بلاغتِه وروعتِه، وبيانِه وفصاحتِه، فإنَّه لا يُعنَى بجميع الجوانب الإنسانية في ندائِه، مِن حيث مخاطَبتُه للعقل والعاطفة معًا، أو مخاطَبتِه للعامَّة والخاصَّة كذلك، بل إنَّه ربَّما يُعنَى بِجانب على حساب جانب آخر، ولا يُقيم الميزانَ الحقَّ بيْنهما، ومِن ثمَّ فهو خطاب بشري يعتريه النقص والخطأ، ولا يصِل إلى ذروة الكمال أبدًا مهْما أوتي صاحبُه مِن الفصاحة والبيان.

والخطاب القرآني حينما نتدبَّر ونستقْرئ آياتِ القرآن، نرى أنَّه في نداءاته وتوجيهاته يتَّسِمُ بالشمول؛ حيث إنَّه لم يجعل نداءه إلى فئةٍ دون فئة، أو جنسٍ دون جنس، أو أهل دينٍ دون غيرهم.

بل شمل ذلك الخطابُ أصنافَ العالمين مِن المخاطَبِين على تنوُّع أجناسهم وألسنتهم وأديانهم التي يَدينون بها.

فقد خاطب اللهُ سبحانه النَّاسَ بصيغة العموم في بعض آيات القرآن، وخاطب الأنبياء والمرسلين عليهم السلام في بعض آخر، وخاطبَ أصنافَ النَّاس مِن المؤمنين والكفَّار والمشركين، وأشار إلى المنافقين في آيات أخرى، وهذا الأمر يُعْلَم بالتتبُّع والاستقراء لآيات القرآن الكريم.

ونحن إذا تأمَّلنا بدقَّةٍ الجانبَ الخطابيَّ، والَّذي خُوطب به الناسُ عامَّة، والمؤمنون خاصَّة، وجدنا أنَّ القرآن يدعو إلى المَطالِب العالِية، والفضائل السَّامِية، والتَّشريعات الهادِية الموجِّهة إلى كل خيرٍ، والدَّعوة إلى هذه المطالب والفضائل والأخلاق والتَّشريعات في الأسلوب الخطابي القرآني، لا تقف أمام نوعٍ واحدٍ أو صورةٍ واحدةٍ مِن صُوَرِ الدَّعوة، بل إنَّنا نرى أنَّ مِن خصائص هذا القرآن البلاغية، وكماله التشريعي، أنَّه نوَّع بين أساليب الخطاب فيه للنَّفس البشرية، ومِن ثم نوَّع أيضًا المجالات المخاطب بها.

فكان بذلك أعظمَ الهداية والإرشاد للقلوب الغافلة، والعقول الحائرة، والنفوس الضالَّة.

إن بعض المناهج الغربية تزخر بإمكانات جيدة في التحليل والتفسير، ومن شأنها أن تضيء بعض خبايا النص، ولكن علينا أن نلتزم الحذر في إسقاطها على النص القرآني، حيث يجب مراعاة خصائصه التي تفرد بها عن غيره.

إن أعظم الآفات المنهجية التي أصابت القراءة الحداثية، تتمثل في تجاهل الحداثيين النزعة الوضعية للمناهج الغربية، وهي حقيقة يسلم بها نقاد الغرب أنفسهم، وهذا التجاهل قاد إلى الاصطدام مع البعد الإلهي لمصدرية النص القرآني. ثم الجهل بطبيعة المناهج الغربية ومآلاتها، فهي تتعامل مع النصوص باعتبارها مادة لغوية محضة، لا علاقة لها بأي بعد غيبي أو تشريعي، وهذا من مداخل المماثلة بين النص القرآني والنص البشري.

إن أهم ما يميز القراءات الحداثية للنص القرآني هو سعيها الدؤوب نحو إحداث قطيعة كلية مع كل مناهج التفسير التي سادت في التراث الإسلامي، ورفض استثمار كل الجهود والفهوم السابقة التي أنتجها علماء الإسلام في تعاملهم مع القرءان الكريم، وهذا الرفض كان تحت دعوى قدم هذه المناهج وتغيبها كليا للقارئ من حيث هو أداة و طرف أساسي في إنتاج المعنى الذي يحمله النص، فهي تراهن على المعنى المتعدد والمتنوع بدل المعنى الواحد مع عدم الإخضاع أو الاحتكام إلى المنطق والأصول الحاكمة للتخاطب في اللغة العربية والذي يعد الأصل في التفسير، كما أنها لم تعر أية أهمية للإشكاليات المنهجية التي يطرحها التفسير، رغم أن عملية التفسير تحكمها مجموعة من الضوابط والمعايير وتخضع لمجموعة من الشروط. يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي والثقافي بالتاريخي واللغوي بمستوياته الداخلية والخارجية، ورغم أن المناهج المخصصة للتفسير تظل مؤصلة في كتب التفسير وكتب علم أصول الفقه بشكل قوي، فمع ذلك فإن هذه المناهج الجديدة في التفسير عملت على تخطي كل الأصول وتجاوز كل الضوابط والقواعد بدعوى التجديد والعصرنة والتحديث، فلقد عمل المناصرون لهذا الاتجاه بالدفع بقوة بمشاريعهم من أجل جعل هذه المشاريع الحداثية في قراءة النصوص القرآنية وتأويلها البديل المنهجي المرتقب لكل الإنجازات العلمية التي راكمتها جهود العلماء السابقين واجتهاداتهم في تفسير القرآن الكريم[1].

تمظهرات الإعجاز القرآني من خلال وظيفية الفعل الكلامي التداولي: (فاعلية الحذف أنموذجا)

الإعجاز لغة: هو مصدر من عجز وهو الفوت والسبق، والتعجيز: النسبة إلى العجز [2]

وهو يعنى إثبات العجز وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز، وضعف من تحداهم.

أما **اصطلاحا**: هو أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق أو هو إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما يتعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير: أعجز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به [3]

[1] . ينظر: محمد علواش، موقع الألوكة الإلكتروني: 2016، https://www.alukah.net/sharia/0/103789

[2] . ابن منظور، لسان العرب، ص 370.

[3] . ينظر: **الزرقاني** محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1/1996، ص 227.**

وقد ذكر العلماء القدامى عدة تعريفات للإعجاز من خلال توجهاتهم ومذاهبهم وفي مجملها يظهر أن الإعجاز القرآني يتمظهر من خلال: لفظه وجمله وتراكيبه ونظمه ونصه وخطابه وأسلوبه، وأخباره وسرده وغيبياته وتأثيراته .. إلخ

وجوه الإعجاز القرآني:

- الإعجاز اللغوي: ويضم: البلاغي، البياني، النظم
- الإعجاز الغيبي: الأخبار والغيبيات
- الإعجاز التاريخي
- الإعجاز العلمي
- الإعجاز التشريعي
- الإعجاز العددي
- الإعجاز بالصرفة

الحذف ظاهرة لغوية، تناولها النحاة والبلاغيّون والمفسّرون، وعقد لها ابن جني باباً سمّاه " بابٌ في شجاعة العربيّة " قائلاً في مستهلّ حديثه: «اعلم أنّ معظم ذلك إنّما هو الحذف، والزيادة، والتقديم، والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف»[4]، وقال عبد القاهر الجرجاني :« هو بابٌ دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيهٌ بالسحر، فإنّك ترى به تركَ الذكر أفصحَ من الذكر، والصمتَ عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتجدُك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِنْ»[5]،

نجد من مباحث التداولية في علم المعاني الحذف، والترتيب، والتنغيم، وبعض الأساليب كالاستفهام، والتعجب، والتحذير، والإغراء، والاختصاص، وكم الخبرية والاستفهامية، وغيره.

أمّا الحذف فيعني أيّ نقص في الجملة الاسمية أو الفعلية، ولا يكون إلا لغرض في المعنى، وتبقى الجملة معه تحمل معنىً يحسن السكون عليه، ومثاله: إنْ سأل سائل قائلاً: مَنْ حضر؟ وأجيب: محمد، فإنّ كلمة (محمد) في سياقها المقامي تحمل معنىً يحسن السكوت عليه؛ أي أنه مفهوم، وقد حذف الفعل هنا لقصد الإيجاز، وهو من ثمّ أمرٌ متداول وشائع، وكثير.

---

4. الخصائص، ابن جني، ج2، ص 360.

5. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 146.

وقد اهتم العرب بالحذف، لما له من دور في إغناء العربية، ولما عليه جرت عادة العرب من حذف الجملة، والمفردات، والحروف، والحركات، كما قرّر ذلك المتقدّمون، منهم ابن جني، وما أكّده سيبويه من حذفهم الكلم، واستغنائهم بالشيء عن الذي من حقّه أن يستعمل، وأنّه لكثرة الاستعمال صار مألوفاً في أساليبهم معروفاً عند عامتهم[10].

نموذج أول:

- الحذف في المركب الفعلي حسب مقتضيات السياق، والمقام يكون في العامل (الفعل)، ويكون في المسند إليه (الفاعل)، ويكون فيهما معًا، ويكون في متعلقاتهما كالمفعول به.

ومن أمثلة حذف الفعل جوازا لدلالة السياق عليه قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾[6]، **والتقدير:** ليقولن خلقها الله

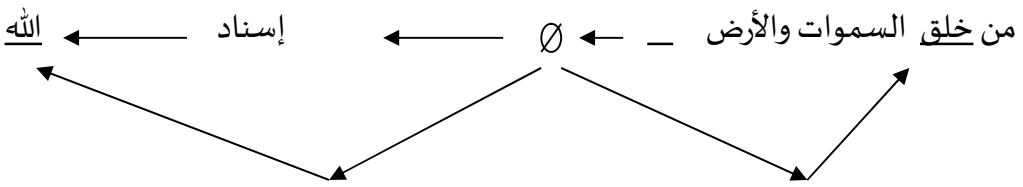

قرينة التقدير (إحالة سابقة)

- وقد يُحذفُ ركنا المركب الفعلي (الفعل والفاعل) معًا إذا دلّ السياق عليهما نحو قوله تعالى: ﴿**وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ**﴾[7]

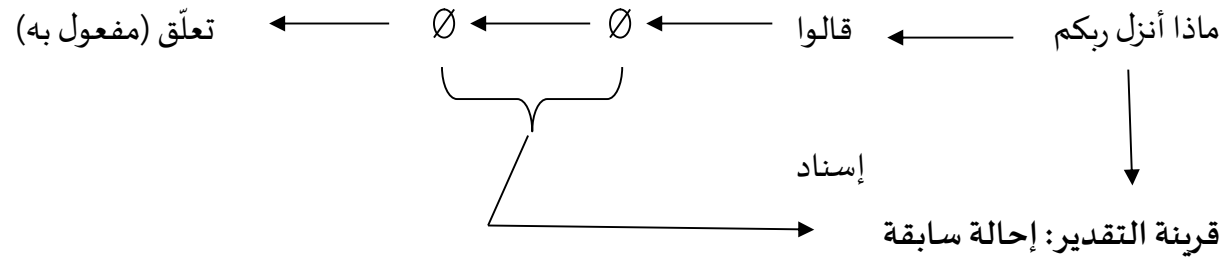

قرينة التقدير: إحالة سابقة

والترتيب في عناصر الجملة يعدّ من باب التداولية، فهو تغيير في تركيب الجملة، يعمد فيه المرسل إلى ما حقّه التأخير فيقدّمه، أو إلى ما حقّه التقديم فيؤخره كتقديم الفاعل على الفعل، أو المفعول على الفعل، أو تقديم الخبر على المبتدأ. . . إلخ، لإجراء تغيير في المعنى، وقد تناول القدماء هذا الأسلوب، ودرسوه بعناية، ويعدّ فنا من الفنون التي يأخذ بها أصحاب البيان في الأساليب يقول الجرجاني: " هو باب كثير

---

6 . لقمان، 25.

7 . النحل، 30.

الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية. . . . ، ثمّ تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قدّم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان "[11]. وقال الزركشي: ". . . . ويقع في الكلام في فصول من حيث المعنى " [12]. وهو عند سيبويه للعناية والاهتمام [13]. وقد وضع النحاة الشروط الناظمة له، وتحدثوا عمّا يجوز، وما لا يجوز، ووجوهه، وأضربه، نجد ذلك بالتفصيل في كتب النحو.

- وتأسيساً على هذا التحليل التداولي، والفهم العميق لسياق المقام، يرى عبد القاهر الجرجاني "أنّه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم"[14]، فقولنا: الشعب يريد، غير قولنا يريد الشعب، فالشعب فاعل تقدّم على فعله للعناية والاهتمام، فأصل الجملة: فعل + فاعل / وبالتقديم أصبحت الجملة فاعلاً مقدّماً لغرض العناية والاهتمام + فعلا، ولا شيء فيها من الاسمية (م + خ).

نموذج ثان:

قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[8] إذ الغرض: واسأل أهل القرية، فليس الحذف هنا راجعاً لذات التركيب اللغوي، وذلك أنّ مثل هذه العبارة لا تحتمل الحذف لو نطق بها رجل مرّ بقرية قد خربت وباد أهلها فأراد أنْ يقول لصاحبه واعظاً مذكّراً، أو أنْ يخاطب نفسه متّعظاً ومعتبراً: سل القرية عن أهلها، على حدّ قولهم: سل الأرض من شق أنهارك، وغرس أشجارك، فلا حذف في العبارتين، والأخر:أنْ يكون امتناع ترك الكلام على ظاهره ولزوم الحكم بالحذف راجعاً إلى الكلام نفسه لا إلى غرض المتكلّم، «وذلك مثل أنْ يكون المحذوف أحد جزئي الجملة كالمبتدأ في نحو قوله تعالى: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[9]، وقوله: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [10] فلا بدّ من تقدير محذوف، وذلك أنّ الاسم الواحد لا يفيد، والصفة والموصوف حكمها حكم الاسم الواحد، و"جميل"صفة للصبر، وفي الإجابة على السائل من هذا؟ تقول: زيدٌ فتقدير المبتدأ المحذوف هنا واجب؛ لأنّ الاسم الواحد لا يفيد؛ لأنّ مدار الفائدة على إثبات أو نفي، وكلاهما يقتضي شيئين: مثبت ومثبت له أو منفي ومنفي عنه»[11].

نموذج ثالث:

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[12]

---

[8] . يوسف، 82.

[9] . يوسف، 18.

[10] . آل عمران، 197.

[11]. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، ص 380/379.

[12] . آل عمران، 18.

هنا يوجد حذف المسند (شهد) قبل المسند إليه (الملائكة)، والمسند إليه (أولو العلم)، ولولا تقدير المحذوف المسند (شهد) هاهنا لفسد المعنى، يقول تمام حسان معلقا على الآية الكريمة لا مفرّ من فهم (شهد الملائكة وشهد أولو العلم) بدليل ما في آخر الآية من قوله تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، ولولا هذا الفهم لجعلنا الملائكة وأولي العلم آلهة مع الله سبحانه وتعالى»[13]

وجه الإعجاز في ظاهرة الحذف:

يرى علماء اللغة المحدثون أن من أغراض الحذف الأثر الواضح في التماسك النّصّي، وضح ذلك مع ظهور نحو النّصّ في مطلع السبعينات من القرن العشرين، ويعرّف نحو النّصّ في أبسط صور التعريفات بأنّه منهجٌ من مناهج التحليل اللّغوي، يستشرف المعنى الكلّي للنّصّ، ويحلّل الأجزاء والمكوّنات على ضوء النظرة الكلّيّة الشموليّة للنّصّ، فالمعنى يتحدّد من خلال النّصّ لا من خلال الجملة، ويمكن لمحلّل النّصّ تفسير جملةٍ ما بجملة لاحقة لها أو سابقة عليها، من منطلق القول بكلّيّة النّصّ، وقد ارتبط نحو النّصّ منذ نشأته ارتباطاً وثيقاً بتحليل الخطاب، والنظر إلى النّصّ على أنّه بنية كلّيّة لا على أنّه جمل فرعيّة، وقد تطوّر النحو بظهوره من نحو يحلّل الجملة إلى نحو يحلّل النّصّ، فيتعامل معه بوصفه جملاً وسياقات، وظروفاً وفضاءات تتعالق فيها المعاني وتترابط بما قبلها وما بعدها، فهو الأكثر اتصالاً بمجال تحليل النّصّ[14].

13. النّصّ والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1998/1، ص 34.
14. نحو النّصّ والتحليل اللّغوي، أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 1999، ص 10.

خاتمة:

تأتي أهمية المنحى التداولي في النص القرآني من خلال المقاربة النصية التي يسعى إليها منظروا التعليميات الحديثة لما لها من ربط القواعد اللغوية والجمالية بسياقاتها التي وردت فيها وربط هذه السياقات بواقعها التي قيلت فيه، باستظهار الأفعال الكلامية ورصد وظائفها في الدرس العربي الحديث متمثلا في علم المعاني والدرس اللغوي الحدي متمثلا في التداولية، لمنع رتابة القواعد وجمودها وتجريدها من حيويتها، أي في ضوء تداولية الخطاب بين مرسل ومرسل إليه وقناة حاملة للخطاب ورسالة هي مضمون الخطاب، ومن أهم النتائج المتوصل إليها نجد: - الفعل الكلامي ووظائفه تتعالق كيرا بين علم المعاني والدرس التداولي الحديث وخاصة ضمن مبحث: الحذف، الذي تتمظهر من خلاله صور الإعجاز القرآني بكل مستوياتها: الدقة، التوضيح، الإيجاز، البلاغة ... إلخ.

هوامش البحث:

1 . عبد الرحمن، طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2/ 2000، ص 28.

2 . ينظر: نخلة، محمود، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، ط1/ 2002م.، ص 112.

3 ينظر : بوقرة، نعمان، مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب، دار الكتب الحديث، إربد، ط2/ 2008. ص 69.

4 . كرستين، تمبل، المخ البشري مدخل إلى دراسة السيكولوجيا والسلوك، ترجمة عاطف أحمد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد287، سنة 2002، ص85.

5 . ينظر: صحراوي، مسعود، التداولية عند علماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، دار الطليعة، بيروت، ط1/ 2005. ص 122.

6 . ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 44 .

7. اوستين، نظرية أفعال الكلام العامة – كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قينيني، دار افريقيا الشرق، ط1/ 1991، ص 86..

8 . ينظر: أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة – كيف ننجز الأشياء بالكلام، ص 89.

9 . ينظر: ياكبسون، رومان، اللسانيات والشعرية، ترجمة محمد الولي، ومبارك حنون، سلسلة المعرفة الأدبية، ط1/ 1988. ص 192.

10 . ينظر: سيبويه، أبو بشر عمرو بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3/1988م، ج1 ص24، ص38.

11. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز الجرجاني، تحقيق: محمود محد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط3/1992، ص 83.

12 . الزركشي، بدر الدين بن محمد، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط2، ج3ص233.

13. ينظر: سيبويه، الكتاب، ج1، ص34.